

قراءة في ما بعد الكولونيالية؛ الماهية والخصائص والأبعاد

Reading in Post-Colonialism; Characteristics, Properties and Perspectives

د. كريمة عباسي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة (الجزائر)

Abbacikarima@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2022/09/25

تاريخ الإرسال: 2022/09/03

ملخص:

تعالج هذه الورقة إشكالية بحثية معاصرة تمتد بجذورها إلى أعماق التاريخ القديم تجتمع حولها البحوث في التخصصات العلمية المتنوعة، رغم وجود اختلافات في الطرح والتوجه عند الباحثين في دراسة ما اصطلح عليه بما بعد الكولونيالية باعتبار أنها نظرية مخصصة لتحليل الخطابات الاستعمارية، وما بعدها، منتهجة بذلك سبيل قراءة التاريخ من وجهة نظر الاستعمار الغربي، انطلاقا من كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد الذي يعتبر من المؤسسين الأوائل لها، حيث أدت دورا محوريا في تسييس المنهج النقدي عند النقاد لما بعدها، في هذا السياق البحثي جاءت هذه الورقة للبحث عن الماهية والخصائص والأبعاد لمصطلح ما بعد الكولونيالية.

الكلمات المفتاحية: ما بعد الكولونيالية، الاستعمار، الاستشراق، الاستعلاء، الإمبريالية الأنا والآخر.

Abstract:

This paper addresses a contemporary research problem rooted in the depths of ancient history that brings together research in diverse scientific disciplines. Although there are differences in the proposition and orientation of researchers in the study of what has been termed post-colonial as a theory devoted to the analysis of colonial discourse. Following the course of reading history from the point of view of Western colonialism, based on Edward Said's Orientation Book, one of its first founders who played a pivotal role in politicizing the

critical approach . In this research context, this paper discusses the qualities, characteristics and perspectives of the term post-colonial.

keywords: post colonialism; colonialism; orientation; imperialism; ego and otherness.

مقدمة:

إنَّ المتتبع للوضع المعاصر للعالم والحال التي آل إليها، يفهم بأن هناك توجهها عاما مفاده بأنَّ الكولونيالية انقضت عهدها وولى، لأنَّ الدول التي عانت من ويلاتهما حازت على الاستقلال وتحررت، حيث نجد فئة تعتقد بأنَّ التطرق لهذه المسألة يجعنا متوقعين في دفات التاريخ، وكأنه لا يهمننا العيش في الحاضر، ولا نفكر في المستقبل.

في المقابل كان من السهل بمكان التوجه نحو تحقيق هدف استشرافي معرفي علمي متكامل تقام عليه أمم، وتبنى به أخرى، غير أنَّ الواقع العربي اليوم طغت عليه الصراعات الداخلية، وكثرت فيه الانقسامات التي أدت إلى ظهور فجوة كبيرة في الهويات الدينية والثقافية والعرقية، بالإضافة إلى وجود الطبقة الاجتماعية التي يسيطر عليها البورجوازيون (أصحاب المال) الذين ساهموا بشكل أو بآخر في صناعة بروجوباندا الفقر والمجاعة، ورسوموا احتياجات المواطن العربي البسيط في البحث عن (الماء والخبز والحليب)، أما باقي الميادين فتعرف تحلفا غير معقول لحق جميع المجالات المعرفية، والاقتصادية، الثقافية، التجارية والصناعية... وغيرها، وهذا أمر لا يختلف فيه اثنان؛ إذَّ يعدَّ من تبعات الكولونيالية الموروثة على شاكلة أشخاص أو على شكل هيئات وجمعيات في أثواب جديدة وبأهداف قديمة قدم السياسة الاستعمارية. والعامل يرى بأنَّ الحاجة إلى إعادة بناء الذات والعمل على استنهاضها، إنما هو من صميم الذاكرة التاريخية (المسروقة) للشعوب العربية الإسلامية، كون التاريخ يمتلئ بالفوائد والدروس والعبر، التي تمكننا من التعامل مع الآخر (الكولونيالي) كثقافة وممارسة، تفيدنا حاضرا ومستقبلا.

بشكل عام يمكن القول بأنَّ ما بعد الكولونيالية، يعبر عنها كباقي المفاهيم الوافدة إلينا، غير أنَّها تنطوي على الكثير من الالتباسات والغموض، وهو ما يُشكل على الباحثين

والدارسين تقديم تعريف شامل وواضح المعالم، نتج عنها عدة تأويلات كشفت عن تعدد البيئات الثقافية والإيديولوجية التي استمدت منها، وهنا يستوجب هذا المفهوم ذو الأبعاد الدلالية المتعددة العودة إلى تتبع المسار التاريخي للمصطلح، مع عدم نكران أنّ مولده الأصلي هو القارة الأوروبية، حيث كانت الفكرة والنشأة والتطور، وامتدت بذلك جلّ أفكارها عبر الغزو والاستغلال البشع لجميع الموارد الطبيعية والاقتصادية للدول المستعمرة من خلال استنزاف الثروات والمقدّرات، لتصبح بعد ذلك وسيلة معرفية تستعملها السلطات الغربية لتدفع بعملية إنتاج نُظُم جديدة لمفاهيم تمكنها من بسّط السيطرة على الدول الضعيفة عبر العالم لتحقيق بذلك ديمومة الهيمنة بكل تفاصيلها.

بالرجوع إلى مجريات الأحداث التاريخية أينّ بدأ هذا المصطلح يكتسي صبغته المفاهيمية وطابعه الاصطلاحي، نجدّ بأنه لم يكنّ مع التوسع الأوروبي فقط، في حدود منتصف القرن السادس عشر، مع بدايات التوسع الأوروبي خارج القارة، إنّما هذا الانتشار كان ممتدا إلى الحضارات القديمة، مثل الإغريقية والرومانية، بالإضافة للوجود العثماني القديم، غير أنّ ما بعد الكولونيالية (الجديدة)، تتميز بالتطور التقني المصاحب لها في ظل التطور التكنولوجي الحديث الذي تتمتع به على مستويات عدة مثل السفن الحربية والاتصالات، عتاد حربي متقدم مع امتلاك أحدث أنواع السلاح النووي، بالإضافة إلى وجود ترسانة بشرية تتسم بالكفاءة الإدارية للتحكم في الأراضي التي هي تحت وصايتها القانونية المعتمدة، لكي لا تفقد الدول الأوروبية سيطرتها وتحكمها في الأراضي الجديدة التي ضمتها إليها بفعل الإجرام والتقتيل ونهب الثروات الطبيعية والاقتصادية.

1/ الإشكالية:

تعتبر ما بعد الكولونيالية مشروعا ثقافيا وفكريا في سياق إيديولوجي، تتميز بأسلوب المقاومة الحادة، هدفها الوحيد هو تقويض الخطاب الغربي الذي أسس لتبني ثنائيات الأضداد تحت غطاء جائر، تتحكم فيه القوى المستفزة للأوضاع الداخلية للمستعمر، تبني المنهج النقدي ذو الطابع الثقافي الفكري والساسى، خطابها الدائم مرتبط بالمسائل السياسية التي تشغل العالم، لها اهتمام كبير بمواضيع ما بعد الحداثة، لتتجه بعد ذلك لرسم خط سياسي موحد هو العمل على رد الاعتبار للثقافات المهمشة المتأثرة بها وفقا للإشكالية

المعالجة تمت صياغة التساؤل التالي: فيما تتمثل طبيعة مصطلح الكولونيالية وما بعدها؟ كيف نشأت؟ ماهي خصائصها وأبعادها؟.

2/ في المفهوم والنشأة:

يعتمد مصطلح "ما بعد الكولونيالية" (Postcolonial) في الأساس على لفظة الكولونيالية المشتقة من المصدر الإنجليزي (Colonial)، حيث يعتبره البعض تعبيرا عن الانغلاق حول الذات (Lockin Around the Self)، والعزوف عن العامة (Public reluctance)، فيما يخص المجالات المعرفية والأدبية، يشكل هذا الأمر عائقا أمام الإنتاج الفكري والثقافي العربي عند البعض الآخر، أما، ما بعدها، تدلّ على القطيعة الفكرية التي ترتبط بالفعل الاستعماري وما بعده (Colonial and post-colonial reality)، مع الدعوة لفهم هذه المرحلة كما يجب. كلّ هذه الاعتبارات قولت بالرفض التام، وتعرض المصطلح للانتقاد فاضطر المختصون في مجال الترجمة أن يجعلوه في مقابل "الاستعمار" (colonialism) / (colonization) رغم أن هذا الأخير مدلوله العربي غير ذلك الذي ترجم إليه وتم إلحاقه بصفة مدمومة، للإشارة إلى الفعل والممارسة الشنيعة التي تعرضت لها الدول المستعمرة (colonia countries) الخاضعة لتبعية الدول الغربية من قمع سياسي واقتصادي، وثقافي في حين النصف الثاني هو متعلق بالآخر "ما بعد" أي يتناول العديد من المشكلات المطروحة تحمل في داخلها أبعاد متعددة المفاهيم والتوجهات والاقتراحات، فهي تشير في الغالب إلى ثلاث أبعاد:

الأول: ما بعد الكولونيالية (Postcolonial) ذات البعد الزمني، المرتبط بفترة ما بعد الاستعمار الغربي عانيت به الدول المحتلة التي نالت تحررها فيما بعد.

الثاني: ذات البعد المفاهيمي للدعوة نحو القطيعة المعرفية بين قبل الاستعمار وما بعده والاكتفاء بفهم هذه المرحلة فقط.

الثالث: كمجال ثقافي تدرس فيه العلاقات الناتجة عن الفعل الاستعماري مع المستعمر وتبعاته وإرصاصاته التي خلفها في مختلف المجالات والميادين.

لذلك تعتبر ما بعد الكولونيالية من أهم المصطلحات المعاصرة التي أسالت الكثير من الحبر عند مختلف النقاد والكتاب والمفكرين، حيث نجد بأنها بدأت تبلور معالمها مع مرحلة ما بعد الحداثة، تجلت بوضوح بسبب السيطرة البنيوية على الفكر الثقافي الغربي بالتوازي مع الضغط الكبير الذي مارسه الميثولوجيا البيضاء^(**) على الفكر العالمي، فانقلبت بذلك المعادلة ليصبح الغرب هو سيد العلم والمعرفة والإبداع والاختراع، ومن خلاله بدأت تصاغ النظريات والمناهج، وبذلك أصبح الغرب هو المركز الرئيس المسيطر، وأصبح العالم الثالث (المستعمر) هو التابع لهذا المركز.

وقد اتفق الكتاب والمفكرون على أنّ هذا المصطلح قد عرّى الإيديولوجية الغربية وممارساتها، وفند بذلك المقولات المركزية التي كان يتغنى بها في جلّ خطابه وممارساته، وقد كان الكاتب الفرنسي جاك داريدا (J.Derrida)، من الأوائل الذين فضحوا هذه الممارسات الثقافية المركزية للغرب، فعبر عن ذلك بقوله⁽¹⁾: (أي اعتبار ذو صلة مباشرة بفكر ما بعد الكولونيالية هو تمييز للثقافة الغربية وقيمها المتعددة، يتجلى هذا المبدأ في أعمال الفكر الكبرى غرب أوروبا والثقافة الغربية الأمريكية، التي طغت على الفلسفة والنظرية النقدية بالإضافة إلى الأعمال الأدبية في مختلف بقاع المعمورة، خصوصا الدول التي تعرضت للحكم الكولونيالي. إنّ المفهوم الذي قدمه داريدا (J.Derrida) عن الميثولوجيا البيضاء ساند هجوم أتباع هذه النظرية على الهيمنة الغربية التي تحتكم إلى الإيديولوجيات بالأساس وبالتالي ساهم في دعم الهجوم لما بعد الكولونيالية على هيمنة الإيديولوجيات الغربية. كما أنّ عدم قبول أصاب ما بعد الحداثة للمرويات الكبرى وأعمال الفكر الغربي كان لها تأثير أيضا كونها تعتبر كأعمال عالمية⁽²⁾. فتمّت صياغة العديد من المفاهيم والتعريفات لهذه النظرية، واختزلت بذلك في الاسم العام أي ما بعد الكولونيالية الذي غطّى "مختلف الثقافات السائدة تلك التي مُست من طرف الإمبريالية"^(***) منذ تاريخ النظرية إلى يومنا هذا، باعتبار أن هناك همزة وصل بين الاهتمامات فيما بينها، على طول خط تاريخ العدوان الإمبريالي، وهنا تجب الإشارة إلى ضرورة نقد المصطلح باعتباره مصطلحا ثقافيا عابرا للثقافات والهويات الجديدة في العصر الحالي، بهذه النظرة فإنّ خطابنا هذا كما يشير بعض المنتسبين إلى هذه النظرية: يهتم بالعالم أجمع كما لو كان خلال فترة السيطرة

الأوروبية الإمبريالية وما بعدها، وتبعاتها على الآداب الحديثة (..) وبنفس السياق تصبح الآداب الأسترالية والافريقية والكندية، وبلاد الكاريبي كلها آداب ما بعد الكولونيالية"⁽³⁾. هنا يمكن القول بأنّ الميزة الحقيقية التي تجمع فيما بينها هو اتفاقها على وجوب رفض الفوقية الغربية والنزعة الاستعلائية، التي تريد الدول الغربية فرضها على الدول المستعمرة وذلك بعدم قبولها الإذعان لما تمليه القوى الكبرى، وهو ما أعطاه صيغة دول ما بعد الاستعمار الغربي.

وبالتالي فإنّ التحليل المنطقي الموضوعي بعيدا عن الانفعال، يتمثل فيما قدمه المفكرون والنقاد للمصطلح، الذي يوصلنا إلى الاعتقاد الجازم بأنه يعتمد على تحليل ما توصلت إليه الثقافة الغربية لاعتبارات ثلاثة وهي: أنّه خطاب موجّه، مسيس، ومقصود، لا يحمل معه إلا أفعال الشرّ للشعوب المستضعفة، وهو خطاب استعماري قدس بثوب جديد. لهذا نجد بأنّ هناك اجتهادات تسعى إلى تضمين المصطلح مفهوما معينا يشرح المقصود منه أو يساهم في الكشف عن مدلولاته نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر تعريف سعد البازعي الذي قدم شرحا مهما للمصطلحين: الخطاب الكولونيالي، وما بعد الكولونيالية، بقوله: "إنهما مصطلحان يتكاملان بنوع من التحليل الذي لا يتصف بالجدّة إنما ملاحه بدأت تظهر في الغرب مؤخرا، وقد نالا الكثير من الاهتمام وزادت نسبة الدراسات حولهما، بحيث يظهر المفهوم الأول بأنّ الثقافة الغربية بلورت المصلح في مختلف الميادين، وهذا الفعل ناتج عن توجهاتها الاستعمارية نحو المناطق الواقعة تحت سيطرتها. أما المفهوم الثاني "ما بعد" يوجهنا نحو فكرة مفادها أنّ الكولونيالية التقليدية قد انتهت باعتبار أنّ المرحلة الإمبريالية قد ولّت، وهذا الوضع يحتاج إلى نوع آخر من التحليل يتسم بالدقة والوضوح"⁽⁴⁾. يعني أنّ المفهومين يعبران عن مضامين متعارضة وهو ما يسهم في قراءة التاريخ بالشكل المطلوب رغم أنّ الاختلاف في فحواهما، وليس في جوهرهما، إلا أنّ البعض الآخر يرى بأنّ الكولونيالية انتهت ويجب أن تنتهي معها جلّ الخطابات الإمبريالية التقليدية، وبالتالي هذا يدفع بعجلة البحث نحو مرحلة ما بعد النظرية فيما يرى آخرون بأنّ الخطاب الكولونيالي ما يزال قيد الخدمة الإمبريالية إلا أنّ "ما بعد" ليس لها أي محل أو اعتبار في الأبحاث ذات الصلة.

تضيف في نفس السياق ماري كلود سموث (Marie-Claude Smouts) بأنّ: المابعية تعتبر كمقاربة، ومساهمة في مجال النقد للإنتاج الثقافي التي تعنى بالمعارف المتعلقة بالآنا والآخر، بالإضافة إلى أنها تقدم اهتماما كبيرا بالقدرات ومستوى الفهم عند المشردين والمعنفين في إطار الهيمنة الفوقية⁽⁵⁾. فهي تعتقد بأنّ السبب الذي يقف حائلا دون القدرة على إصدار مفهوم صريح لما بعد الكولونيالية هو نابع من القاعدة المشتركة في تطور الدراسات الثقافية المنطبقة على مختلف أشكال هيمنة الفوقية، وبالتالي لا يمكن حسبها وضع مفهوم شامل "لما بعد كولونيالي" أيضا.

من هذه القراءة الأولية لهذه الاقتباسات نجد أنّ الباحثين والكتاب المعاصرين يستصعبون تحديد إطار لمثل هكذا دراسات، ذلك أن الأمر يتوقف على التعدد الثقافي للمرجعيات التي تمّ الاعتماد عليها، وبها اكتسبوا وجهات نظر مختلفة ومتعددة، كما أنّ هذه الدراسات أضحت منفتحة على مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والدينية التي تتعرض للهيمنة، والسيطرة الغربية، هذا الأمر أيضا مرهون كذلك بانفتاح هذه الدراسات على مجالات أخرى تتطابق معها في الوضعية (الهيمنة). لذلك عرفت أيضا بكونها: "حركة تاريخية وتحليلية ذات باعث سياسي يتصارع مع الكولونيالية ويقاومها بهدف إبطالها على المستويات المادية والتاريخية والفكرية والسياسية"⁽⁶⁾ بالتالي هذا أدى بالمنتسبين لفكر بيل أشكروفت (Bill Ashcroft) لأنّ يقدّموا له تعريفا آخر بيداغوجيا جاء فيه: "وبالتالي فنحن نستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى كلّ ما هو ثقافي وقع تحت تأثير العملية الاستعمارية منذ بدايتها إلى غاية يومنا هذا، بسبب استمرار عمليات العدوان الإمبريالي الغربي على طول خط الفترة التاريخية المصاحبة"⁽⁷⁾.

وانطلاقا مما سبق ذكره نجد أنّ أهم ميزة اتسمت بها هذه النظرية هي انتماؤها إلى الحقل الثقافي بصفة عامة، ومن بعدها حقل النقد الأدبي بصفة خاصة، وبها تمكن الباحثون والنقاد من فهم ثنائية الغرب والشرق فهما صحيحا ودقيقا، فالأول (الغرب) اعتمد عليها من أجل رصد العلاقات الدولية التي ترتبط بالفعل الحسن شكلا في الدعوة نحو حوار الحضارات، التعايش السلمي، تقبل الآخر، وما يقابلها من علاقات سلبية نحو التصعيد

الدولي أو التصادمات الحضارية، أما الثاني (الشرق) الذي يقابله العالم الثالث، الذي تتجلى صورته علنا في كتب الاستشراق، أو الاستشراق والتنصير (التبشير)، كونها المهة الأولى الذي احتضن الكتابات المعرفية والثقافية، كُتب تعبر عن خطابات سياسية كولونيالية من هنا تجند المنتسبون "للمابعدية" لمواجهة خطر التغريب الذي استفحل في الشرق عبر الاستنزاف غير المشروع لمقدرات المستعمرات الإفريقية، بغية الكشف عن الهيمنة الغربية والحيلولة دون انتشارها أكثر، وبسط سيطرتها بالكامل.

3/ الأزمة التي لحقت بالمفهوم:

بداية يجب أن نعترف بوجود أزمة حقيقية يعاني منها المصطلح في جوهره وكيونته عند الغرب منذ قرابة الثمانينيات من القرن الماضي، حيث ظهرت انقسام في التوجهات بين من يتبناه أو يعارضه، حيث يقف في الصف الأول الذين يدافعون عنه من خلال ضرورة نقد ظاهرة الكولونيالية في ممارسات الغرب، وهو موقف ناتج عن مجموعة من الدارسين الإمبريقيين الذين يقولون بوجود تعدد في الآراء والتوجهات بين التي تتناقض وفكرة «مابعد» الملازمة للفكر الكولونيالي القديم والجديد، وبين تلك التي لم تستطع اجتثاث جذور الكولونيالي القديم (Old Colonial)، ومازلت تعاني من عنصر المقاومة، ضدّ شتى أنواع الكولونيالي الجديد (New Colonial) الذي يتجلى في السياسات الخارجية والعلاقات الدولية الممارسة على الدول المستعمرة والضعيفة وهذا هو الاتجاه الأول.

أما الاتجاه الثاني يذهب إلى الاعتراف الضمني من طرف الدارسين لفكرة المصطلح بوجود هيمنة كبيرة مسلطة عليها من طرف المفكرين الغربيين المحسوبين على دراسات «مابعد» أما الاتجاه الثالث فهو ينم عن الإشكالات المفاهيمية لماهية المصطلح وهنا أصحاب هذا الاتجاه ينقسمون إلى قسمين بين القابل به وبماهيته وتعريفه وأحقّيته في أخذ نصيبه من الكتابات، ومزيّدا من البحوث المعمّقة، للتعريف به، جلهم أصحاب القسم الأول، بينما القسم الثاني ينتسب إليه الذين لا يعترفون بشرعيته لا كنظرية، ولا كتخصص ولا كمصطلح.

من هنا تتجلى لنا المعالم الكبرى للأسباب التي تقف وراء إنكار بعض الدارسين لهذا النوع من الأنماط السائدة من الدراسات المتعلقة بـ «ما بعد - الكولونيالية» المنتهجة في

الجامعات الغربية خاصة لاعتبارات عدة أهمها الزعم بأنها مجرد فزاعة معرفية تم اختراعها من طرف المراكز الغربية، بغية لفت الانتباه نحو الكولونيالية القديمة والآثار السلبية التي خلفتها سابقا، وتلك الهيمنة التي تمارسها حاليا على الدول المستعمرة من قبل، والتي تسعى نحو تغطية الجرائم المرتكبة ضدها.

إذ يدعون بأنّ الكولونيالية التقليدية لا تفي بأغراض الكولونيالية الجديدة التي غيرت الطرق والأساليب وأبقت على نفس النهج والخط السياسي التاريخي. بالرغم من ذلك نجد أنّ المنتسبين للنظرية محلّ الدراسة لا يهتمون بالوضع المزري الذي ما تزال دول مستعمرة بأكملها تعاني من ويلاتها، تلك المرتبطة بالإرث الكولونيالي في وقتنا المعاصر، حتى بعد حصولها على الاستقلال الذاتي، دون نسيان العقلية الكولونيالية المتوارثة أبا عن جدّ للجيل الحالي بغية السيطرة على السلوك والبنية الثقافية والسعي نحو إلغاء الهوية الحقيقية للمستعمر.

4/ في مواجهة الشرعية:

يعتري هذا المصطلح الكثير من المعارضة والانتقاد من الذين يعتبرون بأنه مصطلح لا أساس له من حيث الشرعية، إذ يجدون بأنه يمثل للعالم المتخلف (الثالث)، جلّ الأعمال الأكاديمية التي تدرس للطلاب الغربيين في جامعاتهم من طرف أساتذة عرب ومثقفين ينتمون إلى القسم الثاني من العالم، والباحث المدقق في تبعات كلمة "مابعد" يجد نوعا من التلاعب باللفظ والمعنى، حيث صيغ المصطلح ليتم استبعاد جلّ الكلمات ذات الدلالة على أنها تتوافق مع الأحداث التاريخية الواقعة حقا، وما زالت تقع حاليا، حيث سميت بـ"الدراسات الكولونيالية"، "الدراسات الكولونيالية القديمة والحديثة" "الكولونيالية المعاصرة" الدراسات الإمبريالية... وغيرها، بمعنى آخر كلمة "مابعد" التي ألحقت بالكولونيالية إنما جاءت لتغطي على أفعال المستعمر الشنيع مهما كانت صفته أو هويته، ولتمحي جلّ الآثار السلبية للاحتلال العسكري بكلّ صفاته وأشكاله وأنواعه (قديما وحديثا)، وهنا تتجلى قيمة ما يمكن للقائمين على النظام الغربي أن يقدموا عليه، من أجل طمس الحقائق التاريخية، والعمل على تزويرها بشتى الطرق والأدوات.

5/ أصحاب النظرية:

لا يخفى على أحد بأن إدوارد سعيد كان له الفضل الكبير في صياغة معالم هذه النظرية إذ مكنت الباحثين والنقاد من عملية البحث والتنقيب فيما بعد الكولونيالية وبالتالي وفر لهم الجهد والوقت لاستيعابها وتمحيصها، غير أنه أفلت من يديه معالجة المشكلات المتعلقة بهذا المصطلح، حيث نجد أنّ جلّ تركيزه منصب على التمشيط السطحي للمفاهيم حتى المستخدمة في كتبه، مثل: كتابي النقد العلماني، ودينوية النص، بمعنى لم يبذل جهدا في تبيان وتقديم شرح مبسط كامل الأركان لها. كما لم يقيم بالإشارة إلى إمكانية التعرض لها في الدراسات الثقافية والفكرية الأدبية من عدمها، ولم يتطرق كذلك إلى تحليلات آثار هذه الممارسات في البلدان المستعمرة حديثا وقديما⁽⁸⁾. وكأنه قد غابت عن ذهنه الصورة الواضحة الحقيقية لوجوب العودة بالوعي العربي الذي فشل في تحقيق الديمقراطية الفكرية للمؤسسات والأفراد، إلى مساره الصحيح في الاكتفاء بالنماذج الغربية المكرسة للبروقراطية والرأسمالية والعملة الاقتصادية. غير أنّه استدرك الأمر لاحقا في كتاباته مثل: "تعقيبات على الاستشراق" أين تطرق للمصطلح بشكل موجز، ويّين فيه التدايعات السياسية اللاحقة حين كتب: " وإني بالغ السعادة والرضى؛ لأنّ الاستشراق قد شكّل، في الغالب، فارقا في الدراسات النشطة للخطابات الأفريقيّة والهنديّة، وفي تحليلات تاريخ التابع (Subaltern History) وفي إعادة تجسيد ما هو ما بعد-كولونيالي (Post-colonial) في الأنثروبولوجيا والعلوم السياسيّة، وتاريخ الفنّ، والنقد الأدبيّ، والعلوم الموسيقيّة، فضلا عن التطوّرات الجديدة الهائلة في الخطاب النسويّ وخطاب الأقليّات"⁽⁹⁾. وهذا ليس عيبا في شخصه أو قصورا في العمل الذي بذله، إنما هو من باب النقد العلمي البناء من طرف مفكرين ونقاد علمانيين، درجوا على قراءة مؤلفاته المتنوعة.

ما يلاحظ على إدوارد سعيد أيضا أنه قد قلل من شأن الاستشراق الإسباني (Spanish Orientation) رغم صبغته الكولونيالية في المغرب التي طالها بشكل كبير وأثّر عليها بشكل أو بآخر، كونه المؤسس الحقيقي لنظرية ما بعد الكولونيالية في الحقلين الثقافيّن: العربي والغربي على حد سواء، ويعد كذلك الممهّد الفعلي للنقد الثقافي. ومنه

كان على رأس قائمة أهم المحللين للخطاب الكولونيالي، بل يعده بعضهم المميز والفريد من نوعه، كما كتب أحد الدارسين بأنه استطاع: "أن يفتتح نافذة من البحث العلمي حول الخطاب الكولونيالي، حيث تميز خطابه بالقوة السياسية، في اعتماده على المعرفة والإنتاج الثقافي. غير أنّ التحليل الذي قدمه ركز على السياق المعرفي والبحثي السابق، وهو ما تناولته دراساته للأعمال الخاصة بالمفكرين الغربيين: الفرنسي ميشيل فوكو (Michel Foucault)، والإيطالي أنطونيو غرامشي (Antonio Gramsci). ويمكننا هنا أيضا اعتبار هذين المفكرين من المؤسسين الرئيسيين لأطوار الخطاب الكولونيالي، بالتعاون مع بعض الفلاسفة من مدرسة فرانكفورت مثل: ثيدور أدورنو (Theodorw. Adorno)، وماكس هوركهايمر (Max Horkheimer) وكذلك والتر بنجامين (Walter Benjamin)، وحنانه أريندت (Hannah) ⁽¹⁰⁾.

في حين نجدّ الناقدة الهندية جي سي سبيفاك (Spivak Gayatri) ⁽¹¹⁾، فهي أيضا تعدّ من المؤسسين الفعليين للخطاب الكولونيالي الجديد، كونها منظرية نسوية بحق وحقيقي فيما يخص هذا المصطلح، أين انتقدت الحركة النسوية الغربية انتقادا عنيفا بحيث صبّت اهتماماتها على عالم البيض من الطبقة المتوسطة، ومن جنسين مختلفين. ركزت على ما يعرف الآن بدراسات ما بعد الكولونيالية باسم: "الأتباع"، وهو في الأصل مصطلح عسكري يشير إلى أولئك الذين هم في مرتبة أو مكانة أدنى في المجتمع، استُمد هذا المصطلح في النظرية النقدية من كتابات غرامشي. وتستخدمه سبيفاك (Spivak) للإشارة إلى جميع المستويات المتدنية من المجتمع الكولونيالي وما بعد الكولونيالي: العاطلين عن العمل والمشردين والمزارعين الذين يعيشون من مواردهم الخاصة وما إلى ذلك ⁽¹²⁾.

وتستند سبيفاك على منهج تحليلي نقدي، بفكر ماركسي، الذي يتجلى في مقالها المعنون ب: هل هناك إمكانية أن يتحدث التابع؟ (1988) مركزة في ذلك على الإشارة إلى وضعية المرأة الهندية أمام ما اصطلح عليه بالأثنى التابعة، عبّرت عن ذلك ب: "أنه في العادات الهندية القديمة عندما يتم حرق زوج إحدى الأرامل في الجنائر، لا يسمح المستعمر البريطاني أو الجنود الهنديين الصلاحية للنساء بالاحتجاج أو التعبير عن أنفسهن" ⁽¹³⁾ يعني

هذا بأنّ توجه هذه الناقدة كان منصبا حول قضايا الدفاع عن المرأة الشرقية ضد الهيمنة الغربية، بالإضافة إلى الاهتمام بالثقافة والأدب مع السعي نحو الدفاع عن المهاجرين وحقوقهم الشرعية، من المضطهدين والمشردين، الذين يقعون في سجون الإمبرياليين الغربيين.

أما عبد الوهاب المسيري فقد قدّم نموذجا تفسيريا جديدا في كتابيه "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية" وفي "الإيديولوجية الصهيونية"، فهو يعتبر جهدا لا يستهان به في استنارة العقول وتنوير الفكر، بطريقة تتكامل مع ما استعرضه حسن حنفي مثل: "مقدمة في علم الاستغراب"، أينّ سعى نحو تفكيك عقدة الأنا والآخر، من خلال تقزيم حجم الكبرياء والاستعلاء لدى الآنا الغربية، بتحويلها من ذات دارسة إلى ذات مدروسة⁽¹⁴⁾. وقد تجلّت معالم الانصهار لهذه العقدة في دراسات إدوارد سعيد والمسيري... وغيرهم. كما أدّت الترجمة دورا كبيرا في تفكيك أركانها، كالتي قدمها المسيري في ترجمة أعمال الأمريكي كيفن رايلي (Riley-Kevin) الذي يشير إلى أوجه الاختلال في الثقافة الغربية، ليكشف عن عيوبها وشوائبها التي تتغنى بها وأعطت لها صبغة العالمية (universality) وهي ليست كذلك.

هذا غيظ من فيض مما جادت به أقلام الفكر العربي ولو فتح المجال للدراسة سيكتب عن الموضوع الكثير ممن تأخذهم النزعة نحو المقاومة، كما قام به كثير من المفكرين العرب بتعرية النسق الحضاري الغربي، وتقويض مقولاته المركزية، وتفكيك مقاصده الإيديولوجية.

6/ نظرة نقدية:

إنّ ما اصطلح عليه بما بعد الكولونيالية قد توج بكل الوسائل الفكرية والثقافية والمنهجية لدحض الرؤية المركزية الغربية، ذلك بإعادة إنتاج وتنقيح الكثير من الجمل والعبارات الغربية بالتحليل والتقويم، والاستشراق^(****) كان الباب الأول الذي طرق بالتحليل والتفكيك والنقد الرصين، غير أن هذه النظرية كما تسمى هي عبارة عن مزيج من المناهج العلمية والتحليلات المستنتجة تقوم على الانتقاء والتمايز والتفاضل المنهجي، لكن عيناتها محدودة العدد والكمية، مثل تلك التي عند إدوارد سعيد، وهو ما يخرجننا إلى نتيجة مفادها بأنّها لم تقدّم أيّ جديد يذكر مقارنة بالنظريات الأولى للاستعمار القسّم في جلّ خطاباتّه. لهذا نجد الكثير من المنتسبين إليها تعرضوا لانتقادات شديدة تناولت الجانبين العلمي والأخلاقي لديهم، فاتّهمت بذلك هذه النظرية بالفشل الذريع لما فيها من تناقضات ومفارقات عديدة.

خاتمة:

مما ذكر سابقا نخلص إلى أنّ ما بعد الكولونيالية، انتهجها كتاب النصف الثاني من الكرة الأرضية، عقب أحداث الحرب العالمية الثانية، في أفريقيا وآسيا لمواجهة الهيمنة الغربية وتقويض الشعارات الفكرية المغرضة، بطرق وآليات متعددة بتعدد المنهجيات، فاستمت على العموم بالتفكيك لبعض المقولات، الثقافية والسياسية والتاريخية من جهة، ومن جهة أخرى يتم الاستناد إليها للمقارنة البينية، وبالتالي يمكن القول إنّ ما بعد الكولونيالية جاءت لتقاوم المشروع الفكري والثقافي الغربي الذي يسعى إلى تكريس التبعية، وبسط نفوذه على الممتلكات والأراضي، ظهرت فيما بعد الحداثة لتقف في وجه التغريب، ومحاربة أشكال التسلط السياسي من: الهيمنة، والاستعمار، والتمييز اللوني والعنصرية والطائفي والديني، فيما توسعت الرقعة الجغرافية لكتابتها الذين تبنوها، فخرجت أفكارها بذلك من العالم الثالث لتلتحق بالنصف الأول للكرة الأرضية (الغرب) ليثوروا على الميثولوجيا البيضاء، لأنهم يعتقدون بأنها خطابات مبنية على الخضوع والاستعلاء.

الإحالات والهوامش

(^١) - المصطلح في معاني اللغة العربية المستمدة من القرآن الكريم، لا يتعدى مفهوم الإصلاح في الأرض وعمارتهما، لتحقيق شرط الاستخلاف، وتحقيق التمكين عليها، يقول تعالى: ﴿وَالْإِلَهُ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (هود الآية: 61).

(^{**}) - يراد به هنا الإنتاج الميثولوجي للإنسان الأبيض الذي أنزل في مستوى فكر الآخرين إلى الميثولوجيا يرمز في الغالب إلى المركزية الغربية.

(¹) - دافيد كارتز، النظرية الأدبية، ترجمة باسل المسالمة، ط1، دار التكوين، دمشق، 2010م، ص 125.

(²) - نفسه، ص 124.

(^{***}) - هي عبارة عن أيديولوجية سياسية، تهدف بالأساس إلى توسيع نطاق الحكم على شعوب ودول أخرى، لاعتبارات أهمها: الوصول السياسي، الاقتصاد، السيطرة على الموارد والمناخ الطبيعية ذات الطابع الاستراتيجي، من خلال القوة والهيمنة والتدخل العسكري، وحتى باستخدام القوة الناعمة.

- (3) - شكروفت بيل، وآخرون، الإمبراطورية تكتب مرة أخرى: النظرية والتطبيق في أدب ما بعد الاستعمار ط1، روتليدج، لندن، 1989م، ص2.
- (4) - سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ط2، مركز الثقافي، لبنان، 2000م، ص ص 91-92.
- (5) - Marie- claude et les autres, la situation postcoloniale, Ed , sciences po, paris, 2007, p 33.
- (6) - نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، ط1، المصرية العالمية، 2003م، ص549
- (7) - أشكروفت بيل وآخرون، الردّ بالكتابة، النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2006، ص 16.
- (8) - أنظر كذلك إلى الإستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، دار رؤية 2006م، وكتاب تغطية الإسلام، ترجمة محمد عناني، دار رؤية، 2005م.
- (9) - إدوارد سعيد، تعقيدات على الإستشراق، ترجمة: صبحي حديدي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات بيروت، عمان 1996م، ص 114.
- (10) - سعد البازعي، مرجع سابق، ص 92.
- (11) - Spivak, Gayatri, chakavotry. A. critique of postcolonial reason. Cambridge, ma, Harvard up, 1992. pdf من خلال رابط الموقع <https://www.hup.harvard.edu/catalog.php?isbn=9780674177642>
- (12) - دافيد كارتر، مرجع سابق، ص 128.
- (13) - نفسه ص 128.
- (14) - سعد البازعي، مرجع سابق، ص 92.
- (****) - ظاهرة الاستشراق بشكل عام كانت وليدة الصراع الغربي في مقابل الشرقي فبعد الهزائم المتكررة التي نالت الغربيين، بعد الغزو الصليبي على بلاد الإسلام في القرن الحادي عشر، متزامنة مع الهزيمة النكراء للمغول عقب غزو الصين وكوريا وبغداد في القرن الحادي عشر، اضطروا بذلك إلى تغيير الاستراتيجية الحربية إلى استراتيجية حضارية مع الشرق، من خلال دراسة عادات وتقاليد وممارسات، ومعتقدات الشعوب الشرقية بما في ذلك الثروات والموارد الطبيعية، ليستكشفوا مواطن القوة ويعملوا على إضعافها.